

كيف تربح المعركة قبل أن تخوضها؟

سون تزو الصيني الذي لقن العالم «فن الحرب».. والسلم أيضا



النصر الأعظم هو ذاك الذي لا يتطلب قتالاً

محظية، ثم أمرهن بأن يتسلحن بالحراب في أيديهن، ثم خطب بهن قائلاً "أعتقد أنكن تعلمن الفرق بين المقدمة والمؤخرة، اليد اليمنى واليد اليسرى؟". أجابته النسوة "نعم".



كتاب فن الحرب لم يركن يوماً ليعلوه الغبار رغم مرور 2500 عام على وضعه

فمضى تزو قائلاً "عندما أقول انظرن أمامكن، يجب عليكن النظر إلى الأمام؛ وعندما أقول دُرّن إلى اليسار فيجب عليكن الدوران باتجاه أيديكن اليسرى، وعندما أقول دُرّن إلى اليمين فيجب عليكن الدوران باتجاه أيديكن اليمنى".

على دقات الطبول أعطى تزو أوامره "دُرّن إلى اليمين" لكن النساء انفجرن في الضحك ولم ينفذن الأمر، فعقب تزو قائلاً "إذا كانت الكلمات المستخدمة في إصدار الأوامر غير واضحة، وإذا كانت الأوامر غير مفهومة، فيقع اللوم وقتها على القائد".

ثم أكمل تدريبهن فأعطى أوامره "دُرّن إلى اليسار" لكن النساء انفجرن في الضحك ثانية ولم ينفذن الأمر، فعقب تزو قائلاً "إذا كانت الكلمات المستخدمة في إصدار الأوامر غير واضحة، وإذا كانت الأوامر غير مفهومة، فيقع اللوم وقتها على القائد".

هنا أصدر تزو الأوامر بقطع رقبة قائدي المجموعتين أمام النسوة! وعلى الفور تم تعيين من تليهن في الخطوة لدى الملك، وتم استئناف التدريب فلم تضحك أي واحدة، وتقدمت النسوة في التدريبات العسكرية دون أن يخاطرن بإصدار أي صوت!

أرسل تزو رسالة إلى الملك قائلاً "لقد تم تدريب وتنظيم جنودكم، يمكنكم الآن استخدامها في أي رغبة يشاؤها ملكهن. أصدر لهم الأمر فيخضن خلال الماء والنار".

إلا إن الملك رد عليه " فلتعد لتدريب الجنود، لا رغبة عندي في استعراض الجنود".

فكان رد تزو "الملك المغرّم فقط بالكلمات، لا يستطيع ترجمتها إلى أفعال".

مقاطع كاملة من الذاكرة. وفي عام 2003 أدرجت اللجنة العسكرية المركزية الصينية أكثر من 300 مثال للحرب النفسية والإعلامية والقانونية استشهدت خلالها 39 مرة بأقوال تزو.

من هو سون تزو؟

قليلة هي الكتب التي تجاوزت شهرتها شهرة كتابها، وكما هو حال نيكوس كان انتزاكيس مع روايته "زوربا"، وجمال ميغيل دي ثيربانتس مع روايته "دون كيشوت"، الإنصاف يستدعي أن نتحدث عن تزو الذي طغت شهرة كتابه على شهرته.

بالتأكيد، كان تزو أكثر من مجرد محارب أو قائد يفهم استراتيجيات القتال وكسب المعارك. من الواضح أنه كان رجلاً ذا بصيرة، وإنساناً حاد الذكاء. والأهم من ذلك كله كان قادراً على تحويل أفكاره النظرية إلى وسائل عملية على أرض الواقع.

عاصر تزو، الذي ولد عام 551 قبل الميلاد، نهايات ما يعرف بـ"عصر الربيع والخريف" الذي شهد تحول المجتمع الصيني من مجتمع العبيد إلى المجتمع الإقطاعي، حيث كثرت الحروب بين أكثر من 130 مملكة صغيرة. أدى التحارب في ما بينها إلى ظهور خمس ممالك قوية تنازعت على السلطة والحكم.

لم يكن تزو الشاب بمعزل عن تلك الحروب التي ساهمت في بناء خبرته العسكرية وصقلت مواهبه، ولا ننسى بالطبع أنها زادت من حكمته. ووفق المخطوطات الصينية فإن تزو كان جندياً في مملكة تشي؛ وبسبب ذبوع خبرته في فنون الحرب والقتال طلب منه الملك هوو لوو أن يضع خلاصة خبرته وتجاربه في كتاب، فكان "فن الحرب".

فلما انتهى سون تزو من كتابته سألته الملك "هل يمكنني وضع نظرياتك عن إدارة الجنود تحت الاختبار؟". رد تزو بالإيجاب، فسأله الملك مرة أخرى "وهل يمكننا إجراء الاختبار على النساء؟".

وتم إحضار 180 امرأة من جوارى القصر، قسّمهن سون تزو إلى مجموعتين، وعين على رأس كلتا المجموعتين

بمكره ليتجاوز مكر العدو. وهنا تبرز أهمية بديهية عبارة تزو الشهيرة "الحرب طريقة للخداع".

باختصار، يعتقد تزو أن الحرب مكلفة ومن المحتمل أن تكون مدمرة للدولة ويجب شنّها بحذر، والأفضل عدم شنّها. المعرفة والخداع والمكر هي أدوات القائد التي من خلالها يمكن تأمين موقع متميز على العدو. عند ذلك فقط يمكن شن الهجوم بسرعة وحسم.

حروب معنوية

الحرب لا تقتصر على المواجهة العسكرية في ساحات القتال، هناك حرب أخرى لا تقل أهمية عن المواجهة بالأسلح، هي حرب أيدولوجية تهدف إلى قهر الخصم بالدعاية والترهيب دون الاضطرار إلى اللجوء إلى الالتحام الجسدي.

ويعتبر تزو أن تحسين الاقتصاد والتنظيم المدني، وحل النزاعات الداخلية، وزيادة التدريب العسكري، وإجراء مفاوضات السلام، وجمع الحلفاء، وإرسال الجيش إلى الميدان لبدء عمليات محدودة، كلها جزء من الحرب المتكاملة.

من الناحية المثالية، يتم تحقيق ذلك من خلال الدبلوماسية. وقد تشمل الحرب الأيديولوجية أيضاً أنواعاً فرعية مثل الحرب النفسية والإعلامية. وتجري الحرب المتكاملة في أن واحد في المجالات الإدارية والدبلوماسية والعسكرية.

لا غرابة بعد أن

قيل كل ذلك، أن كتاب "فن الحرب" لم يركن يوماً ليعلوه الغبار رغم مرور

2500 عام على وضعه، وترجم إلى 29 لغة أجنبية. وهناك أكثر من

ترجمة عربية، أهم مترجميها هما سميح الخادم مع مؤسسة دار الريجاني للطباعة والنشر، ومحمود حداد مع دار القدس.

لقد تحول الكتاب إلى جزء أساسي من الفكر الاستراتيجي الصيني تستخدمه

أكاديمية الدفاع الوطني لجيش التحرير الشعبي كنص أساسي لجميع الجنود منذ عام 2006.

ونقشت الأكاديمية أقوال نقلتها عن تزو على جدرانها. ويمكن

للمسؤولين الصينيين تلاوة

لم يرق بإجراء إلا القليل من الحسابات قبل الالتحام. القيام بحسابات مكثفة يقود إلى النصر، بينما القليل منها يقود إلى الهزيمة. لكن ما هو حال من لا يقوم بأي حساب؟

بالإنتباه إلى هذه الحقيقة، يقول تزو إن باستطاعته رؤية من سيفوز ومن سيخسر المعركة قبل وقوعها. "عزّ الفخاخ لتغري العدو. اختلق الفوضى، وقم بسحقه. إذا كان عدوك آمناً في كل النقاط، كن مستعداً له. إذا كان متقوقاً بالقوة، تحاشاه. إذا كان عدوك ذا طبع حائق، قم بالسعي لإغضابه. أضع الضعف، حتى تزداد غطرسته. إذا كانت مرتاحاً، لا تعطه الفرصة للراحة. إذا كانت قواته متحدة، حاول تفرقتها. قم بالهجوم عليه حينما لا يكون جاهزاً، وأظهر حينما لا يتوقعك".

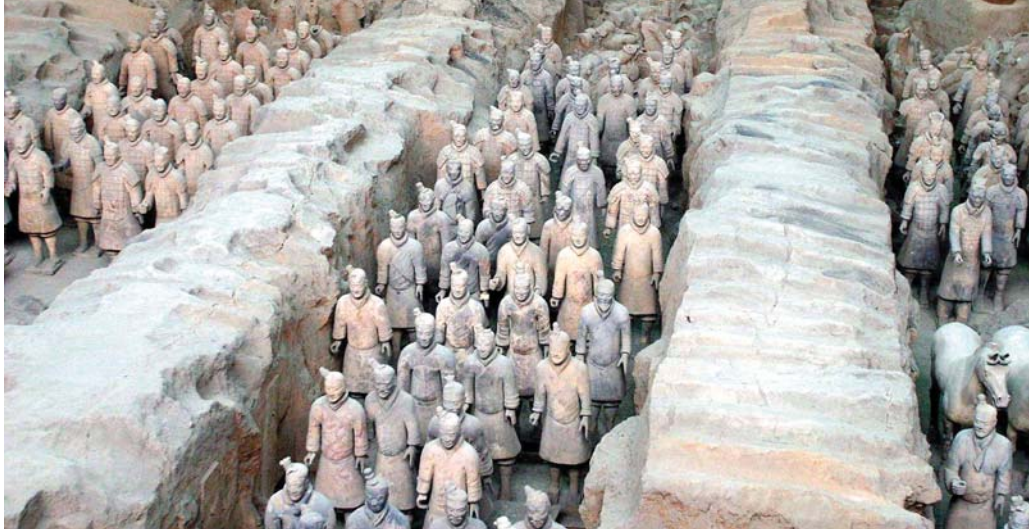
كان تزو يدرك أن الحرب تكسب بالمعلومات، لذلك شدد على دور القائد ليس فقط في وضع استراتيجية المعركة، بل في جمع المعلومات الاستخباراتية الشاملة حول كل التفاصيل المتعلقة بالعدو، وساحة المعركة، وحالة الأفراد المقاتلين.

القائد الجيد يجب أن يعرف رجاله أيضاً، كما يعرف العدو، ويجيد استخدام البيانات التكتيكية. فقط عندها سيكون قادراً على التلاعب بالآخرين، خاصة قائد العدو، واستنتاج الخطوة التالية للعدو من فهم السلوك. فوق كل ذلك يجب أن يتحلّى بالقدرة على رؤية الأشخاص على حقيقتهم".

ومع ذلك، لا يكفي مجرد الحصول على المعلومات عن العدو. يجب على القائد أن يكون بارعاً في استخدام هذه المعلومات لصالحه.

تعتمد القرارات التكتيكية على قدرة القائد على التفسير الصحيح للإشارات المتاحة وتوقع خطط عدوه. لا يعتقد تزو أن المعرفة يمكن أن تجعل شكوك الحرب مؤكدة. وبدلاً من ذلك يتوقع من القادة تقليل الشكوك عن طريق المعرفة والإرتقاء

أمراً صعباً. التحيل العسكرية هي ما يقود إلى النصر، لذلك يجب الحرص على ألا تكشف مسبقاً. ليربح القائد المعركة يجب أن يقوم بالعديد من الحسابات قبل أن تحصل المعركة. القائد الذي خسر المعركة،



عندما نكون قادرين على الهجوم يجب أن نبدو بموقف العاجز

2500 عام لم تكن كافية ليعلو الغبار كتاب "فن الحرب". نقّب في صفحاته قادة كبار بينهم نابليون وماو تسي تونغ. واستخدم في التخطيط لعملية عاصفة الصحراء حيث قال عنه الجنرال كولن باول إنه كتاب يواصل تأثيره على الجنود والسياسيين. وأوصى دونالد ترامب بقراءته، واعتبره واحداً من أعظم الكتب الحربية التي دوّنها التاريخ.



علي قاسم كاتب سوري مقيم في تونس

مع انسحاب القوات الأميركية من أفغانستان، ونجاح طالبان في السيطرة على البلاد خلال وقت قياسي ودون قتال تقريباً، عاد كتاب "فن الحرب" ليذكرنا بأنه كتاب لا يموت.

في تقرير نشرته مجلة "ناشونال إنترست" الأميركية يقول يورغن أورستروم مولر الوزير الدنماركي السابق والباحث في معهد دراسات جنوب شرق آسيا في سنغافورة إن الإرهابيين أدركوا "أن كل ما يحتاجونه هو انتظار الوقت المناسب حتى تفقد الولايات المتحدة عزيمتها وإصرارها"، مذكراً بتعاليم سون تزو الذي ذاع صيته حوالي عام 500 قبل الميلاد ونصيحته بتجنب المواجهة حتى يكون هناك توازن ملائم.

مقاتلو طالبان، بوعي منهم أو دون وعي، طبقوا تعاليم الإستراتيجي الصيني تزو الذي ذاع صيته حوالي عام 500 قبل الميلاد بسبب عبقريته العسكرية القائمة على تجنب المواجهة حتى يكون هناك توازن ملائم.

إلا أن القراءة السطحية لكتاب فن الحرب ستحد من أهمية أشهر كتاب في التاريخ. الحرب التي تحدث عنها تزو لا تقتصر على الميدان، بل هي حرب شاملة جوهرها تجنب الحرب.



وهذا ما فعلته طالبان على مدى عشرين عاماً.

النصر الأعظم هو ذاك الذي لا يتطلب قتالاً". أكاد أجزم أن تزو قد تردد كثيراً عندما اختار عنواناً لكتابه، بين أن يسميه فن السلم، أو فن الحرب، قبل أن يحسم أمره ويختار فن الحرب. السلم حالة لا ندرِك قيمتها إلا في الأوقات التي يفرض فيها القتال علينا.

الحرب خدعة

فن تجنب الحرب، عنوان آخر استبعده تزو، وهو الذي قال لنا إن المقاتل الحكيم هو من يتجنب المعركة. ومن يرغب في الانتصار عليه أولاً أن يحسب التكلفة، ويتأمل ويتدبر قبل الإقدام على أية خطوة. وأن ذروة فن الحرب هي إخضاع العدو دون قتال، وأن لا فائدة لأية أمة في إطالة أمد الحرب.

"أن تكسب مئة معركة ليس ذروة المهارة، أن تخضع العدو دون قتال هو ذروة المهارة".

ركن تزو في الجزء الأكبر من كتابه على تلقيننا أهمية أن نتجنب الحرب، وهو ما يفسر جاذبية كتابه حتى بعد